

التحالف الثلاثي

بين الفقر والجهد والمرض

الفقر والمرض والجهد شركة تظل قوية ما دامت متضامنة. لكنها لا تلبث أن تضعف وتبتدأ إذا زال أحد أركانها الثلاثة ، لأن معالجة الفقر تعين على معالجة الجهد ، كما أن مكافحة المرض تؤدي غالبا الى تخفيف وطأة الفقر .

ومع أن لهذه النكبات الثلاث نصيبا كبيرا في الشقاء الإنساني ، فإن أكبرها هو الفقر . ذلك أن مجتمعنا اقتصادي أساسه وأقيسته وسائر اعتباراته . فالفقير يعجز عن شراء الأطعمة التي تقوم عليها صحته وصحة عائلته . وقد أثبت الدكتور على حسن أن مسألة التغذية في مصر هي قبل كل شيء مسألة اقتصادية . لأن الفقراء يعجزون عن شراء حاجاتهم من الأطعمة . وعندنا في مصر أمراض — مثل البلاجرا — هي نتيجة القصور الغذائي . إذ أن المريض يعجزه فقره عن شراء الغذاء الكامل ، وعن الإقامة في مسكن صحي ، أو عن العناية الصحية بالمسكن . وقل مثل هذا في حرمانه من الملابس المدفئة وفي عجزه عن شراء الدواء .

فالأمر اض تعود — الى حد كبير — الى الفقر . سواء أكان هذا القلة الأغذية أم لقلة النظافة . فإن حمى التيفوس مثلا تنقل الى الانسان عن طريق القمل . وهي لذلك تنفشي في البيئات الفقيرة حيث يقل الاستحمام وغسل الملابس . وقد انقرضت هذه الحمى من الأقطار المتعدنة حيث تستطيع العائلات شراء الصابون وتبديل الملابس . ولما كان قوام التغذية هو المواد البروتينية الحيوانية فان الفقر يؤدي الى حرمان الفقراء من هذه المواد التي هي أغلى الأغذية ثمنا . وهذا العجز عن شراء المواد البروتينية كاللبن واللحم والخبز يحدث ضعفا في الأجسام يجعلها عرضة لأمراض التدرن والبلاجرا وغيرها .

والفقر هو أيضا أعظم الأسباب لتفشى الجهل . لأن التعليم — مدة المدرسة وبعد المدرسة — يحتاج الى تكاليف أقلها أنه يجب على الوالد أن يقوت ابنه أو بنته دون أن يفريه الفقر باستخدامهما والتكسب بمجهودهما . ونحن نرى أن كثيرا من الآباء يستخدمون أولادهم من البنزين في البيوت والمصانع ويهربون من المدرسة الإلزامية لكي يرجحوا آخر الشهر ٢٠ أو ٣٠ قرشا هي أجرة الصبي أو البنت لخدمتهما في البيت . ولكن الجهل لا تقشمه ثلاث سنوات أو أربع في مدرسة إلزامية وإنما يحتاج الى مواصلة الاطلاع بالكتاب والصحيفة وسائر الوسائل للتثقيف . والفقير يعجز عن شراء هذه الوسائل وهو لذلك ينسى ما تعلمه في صباه .

فمن هذا الذى ذكرنا . مدرك أن الفقر يؤدي إلى المرض وإلى الجهل . ولكن كذلك المرض يؤدي إلى الفقر والجهل . وكذلك الجهل يؤدي إلى الفقر والمرض . فهن تضامن وتداخل . ولكن الفقر هو العامل الأكبر للشقاء .

فإن أعظم ما يصاب به العامل الكاسب هو المرض الذى يعوقه عن أداء عمله ويحرمه من كسبه . وقد كان المرض أعظم الأسباب للتعطل بين العمال قبل ثلاثين سنة إذ كان في رأس القائمة . وأكبر الظن أنه ليس كذلك الآن لأن التطور الصناعى من حيث الاتجاه المتزايد نحو الآلة قد أوجد أسبابا أخرى خطيرة للتعطل . على أننا في مصر نستطيع أن نقرر مع اليقين أن المرض هو أعظم الأسباب للتعطل . لأن الآلات لم تنفث بيننا إلى الحد الذى يجعلنا نغزو إليها السبب الأكبر للتعطل العالمى . والعامل المتعطل هو العامل الفقير . وهو أيضا الجاهل الذى يعجز عن تعليم نفسه أو أولاده . ويكاد يكون جميع المتكففين في بلادنا مرضى أو هم يدعون المرض لأنه عندهم السبب "الرسمى" للتكفف .

وكذلك الجهل يؤدي إلى الفقر وإلى المرض . فإن المعرفة قوة . والعامل الماهر الذى تعدد يمتاز على العامل الجاهل . الأول هو "العامل" الذى يحترف حرفة معينة . والثانى هو "الفاعل" الذى يتسكع في الحرف ويلبى أى طلب رخيص . ثم هذا الجهل نفسه نرى أثره السيئ بل القاتل في الأمهات من الطبقات الدنيا . فإن وفيات الأطفال هنا ليس لها نظير حتى في الهند . ومرجع ذلك إلى الجهل والفقر معا . وعندنا أمهات يمتصن الطعام ثم يخرجنه من أفواههن ويطعمن به الطفل . وعندنا أمهات يتركن الذباب حول الطفل ينقل إليه الرمد والنزلات المعوية . . وقد نفثى بيننا النعمى بأعظم مما نفثى في الهند أيضا لهذا السبب . وصحيح أن الفقر يؤدي إلى قلة النظافة في البيت وإلى كثرة الحشرات والذباب . ولكن في كثير من الحالات نجد عادات متوارثة تؤدي إلى نفثى القذارة التى يغشاها الذباب وسائر الحشرات .

فتحن هنا آراء "حلقة مفرغة" من الفقر والمرض والجهل . وكل من هذه التنبكات تؤدي إلى الأخرين . ولا يمكن أن نحمل على واحدة منها إلا إذا حملنا على الثانية والثالثة . وصحيح — كما قلنا — أن الفقر هو الأساس . لأننا نلاحظ أن الثرى الجاهل يعلم أولاده إذا لم يستطع تعليم نفسه . ولكن الجاهل يعجز عن ذلك . وكذلك الثرى يعالج نفسه أو يعالج أعضاء عائلته إذا مرضوا . ولكن الفقير يعجز عن ذلك .